رأس المانيا المنتفخ[1]

هذا عنوان كتاب ألّفهُ الدكتور اميل ريخ سنة ١٩٠٧ وكان لهُ وقع عظيم في بلاط الملك ادورد السابع وفي الدوائر الخاصة ايضاً في انكلترا ولكن جمهور الشعب الانكليزي لم يعرهُ الانتباه اللازم الاَّ بعد وقوع الحرب الحالية فتهافت على قراءتهِ حتى اعيد طبعهُ ثماني مرات قبل انتهاء سنة ١٩١٤ . والمؤلف مجري تلقى العلوم في جامعات ڤينا و بودابست و براغ ودرس اخلاق الشعب الالماني درساً دقيقاً ثم استوطن انكلترا بضع سنوات الَّف في خلالها الكتاب الذي نحن في صدده واوضح فيهِ مطامع المانيا واستعدادها الحربي وما يريي اليهِ امبراطورها من بسط سيادتهِ على المسكونة . الاَّ ان ما ذهب اليهِ المؤلف من وجوب زيادة الجيش الانكليزي لقاء استعداد المانيا الحربي لم يرضِ الامة الانكليزية التي كانت ترى ان الاسطول كافٍ لدفع كل خطر عن البلاد وانهُ يستحيل ان يضمر امبراطور المانيا وشعبهُ العداء لهم . وقد كان رأي المؤلف هذا سبباً من الاسباب التي جعلت الشعب الانكليزي يعرض عن كتابهِ في ذلك الحين

والكتاب مقدمات ونتائج اما المقدمات فمدارها على حالة الشعب الالماني العقلية والمادية والنتائج عمَّا نتج عن هذه الحالة من المطامع والاستعداد الحربي والمالي والسياسي التي ادَّت اخيراً الى هذه الحرب المشومة

فبروسيا (وهي اكبر الممالك الالمانية وقائدتها سياسيًّا وحربيًّا) مملكة حديثة النعمة نسبة الى سائر ممالك اوربا . اهتدى اهلها الى الدين المسيحي منذ نحو ستمائة سنة وكانوا يتكلمون لغة سلافية . وظلت بروسيا خاضعة لملوك بولونيا الى اواخر القرن السادس عشر وقد اجتاحها الفاتحون من المجر و بولونيا واسوج وفرنسا والف امراؤها الاستعطاء من ملوك اوربا ووزرائها . ولم تكن احوالها القومية بافضل من احوالها السياسية فاهلها اكثر الشعوب الاوربية مهاجرة فنهم ملايين عديدة منتشرون في سائر ممالك اوربا وفي اميركا طلباً للرزق . وقد اثَّر فيهم الذل الذي قاسوهُ كل هذه القرون فلما انشأوا الوحدة الالمانية سنة ١٨٧١ ونظموا امورهم هبُّوا هبة واحدة ليمحوا عار الماضي كما يفعل حديث النعمة الذي يبذل جهدهُ لينسي الناس ايام فقرهِ . حتى انهُ لما ذهب نابوليون الثالث في الاسر التي رتكه المؤرخ الالماني (الذي فضح

(1) Germany's Swelled Head, by Dr. Emil Reich.

عيوب مواطنيهِ) وقال لهُ « مَن تحارب المانيا الآن بعد ان اسرت الامبراطور » . فاجابهُ رنكه « انها تحارب لويس الرابع عشر » . اي انها تأخذ بثارها مما فعلهُ بها ذلك الملك الجبار قبل تلك الحرب باكثر من مئة وخمسين سنة

ولما رأى الالمان انهم توفقوا الى تأسيس الوحدة الالمانية بعد انتصاراتهم الباهرة على الدنمارك والنمسا وفرنسا وان تجارتهم وصناعتهم في ارتقاء داخلهم الغرور والطمع فادعوا انهم شعب الله الخاص وان اعداءهم اعداؤهُ وقامت بينهم زمرة من الكتاب والمؤرخين لم يتركوا سبيلاً الاَّ طرقوهُ لاثبات هذه الدعوى حتى يخيل لمن يقرأ كتاباتهم ان الشعب الالماني خلق من طينة غير الطينة التي خُلق منها سائر البشر وان الباري خلقهُ رحمة بالعالمين وسيهبهُ المكونة يتمتع بها ويسود اهلها ويكون لهُ القول الفصل والسلطة العليا حتى يرث الله الارض وما عليها

ولا بأس من ايراد بعض الشواهد على ما تقدم من اقوال امبراطورهم وكبار قوادهم ومؤرخيهم واساتذتهم . ومما يذكر في هذا الصدد ان كثيرين من غير الالمان ادَّعوا دعاوي باطلة مثل هذه ونسبوا الى مواطنيهم صفات لم تكن فيهم فكان مواطنوهم يقرأون اقوالهم ويرمون بها عرض الحائط اما في المانيا فالامر على ضد ذلك فان مثل هذه الدعاوي الطويلة العريضة تجد آذاناً صاغية وقلوباً واعية حتى تشبَّع منها الشعب الالماني وصارت عقيدة من عقائده

الَّف ولتمن كتاباً عن الالمان والنهضة الايطالية في القرن السادس عشر ادعى فيهِ ان جميع المصورين والنحاتين الذين اشتهروا في ايطاليا كميكل انجلو ورفائيل ولناردو ده ڤنشي وبلبني وغيرهم كانوا من اصل الماني مستنتجاً ذلك من هيئتهم واسمائهم واسماء المدن التي ولدوا فيها (بعد تحريفها حتى صارت تشبه الاسماء الالمانية)

والف الاستاذ دانيال مدرس الجغرافية في مدرسة هال (Halle) الملكية كتاباً في الجغرافية (اعيد طبعهُ مئتين وخمساً وستين مرة حتى سنة ١٩١١) ذكر فيهِ ان فرنسا كانت اصلاً مملكة صغيرة من بقايا امبراطورية شارلمان ثم امتدت شرقاً مغتصبة الاملاك الالمانية التي في جوارها . ومما جاء في هذا الكتاب ان ليون ومرسيليا كانتا في العصور الوسطى مدينتين المانيتين

وقال الاستاذ تريتشكي « لمن ستكون السيادة في العالم ؟ اليس لالمانيا حامية السلم . فان روسيا الضخمة لا تزال في دور التكوّن ومواضع الضعف فيها كثيرة واحوالها الاقتصادية ومشاغلها الداخلية قد الهتها عن كل شيء آخر . وانكلترا اضعف مما يظن لاول وهلة ومستعمراتها ستنفصل عنها في المستقبل . وفرنسا تتنازعها اختلافات الاحزاب . وايطاليا

ستعطي عملاً يساعدها على اطعام اولادها القوت الضروري . فالمستقبل لالمانيا وعلى الخصوص ان تتحد بها اذا ارادت ان تبقى في عالم الوجود »

وقال المارشال فندر غولتز (باشا) « علينا ان نقنع انفسنا ونقنع الجيل الذي تولينا تعليمهُ ان وقت الراحة لم يأتِ بعدُ ولا بدَّ من تنازع عظيم يتوقف عليهِ قيام المانيا او سقوطها وسيكون هذا التنازع عظيماً جدًّا مثل كل تنازع يقع بين الشعوب المختلفة وسيكون ايضاً مقدمة لتغييرات سياسية مهمة »

وقال الجنرال ثون برنهاردي (مؤلف كتاب « المانيا والحرب القادمة » الذي ذاع صيتهُ في الخافقين) في خطاب القاهُ امام جمعية برلين في ٢٣ يناير سنة ١٩٠٥ « انهُ رغماً عن المعاهدات ومؤتمرات السلام فان المشكلات العظيمة لا تحل إلاَّ بالسيف »

ومما جاء في كتابات هذا القائد ما يأتي

« ان الشعب الالماني اعظم شعب متمدن ذكر في التاريخ »

« ان الجنس البشري مديون بتقدمهِ للشعب الالماني »

« الحرب هي العامل الوحيد الذي يغلّب التقدُّم على التأخر »

« الحرب واجب ادبي وعامل من عوامل التمدن لا غنى عنهُ »

« كل مسعى يسعاهُ الناس لابطال الحرب جهالة ومخالفة للاداب وامرٌ غير لائق بالجنس البشري »

« يلزم محق فرنسا حتى لا نقف امامنا مرة اخرى »

« ان الاتفاق السلمي مع انكلترا امرٌ وهمي لا يليق بالسياسة الالمان اتباعهُ »

« علينا ان نحارب الحرب القادمة لحماية مصالحنا ومصالح العالم اجمع ولكن شعارنا السيادة على العالم او السقوط »

اما القول وليم الثاني امبراطور المانيا فقد اصبحت اشهر من ان تذكر ولاسيما وان جرائد العالم تناقلتها وقتما قالها . وهاك بعضها

« ربما يُطلب منكم اطلاق النار على والدكم واخوتكم فبرهنوا حينئذٍ اخلاصكم بتضحية حاسياتكم » (من خطاب القاهُ على انفار القرعة في بوتسدام يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٩١)

« لتكن لكم كلكم ارادة واحدة وهي ارادتي وشريعة واحدة وهي شريعتي »

« يجب ان لا يبث امرٌ في العالم بدون رضى امبراطور المانيا والشعب الالماني » (من خطاب القاهُ وقت الاحتفال بمرور مئتي سنة على تأسيس مملكة بروسيا)

« الشعب الالماني ملح الارض »

« قد امتدت لفتنا الى ما وراء البحار وعلومنا ومباحثنا ارتقت جداً وكل اكتشاف جديد ورأي علمي امتحانهُ نحن اولاً ثم اقتبسهُ باقي الشعوب منا »

« سيكون الشعب الالماني الصخرة الصماء التي يبني الله عليها عملهُ في تمدين العالم . وحينئذٍ تتم نبوة الشاعر بان اخلاق الشعب الالماني هي التي ستحسن حال المسكونة »

وواضح مما تقدم ان الالمان يعتبرون انفسهم افضل خلق الله وان جميع المشاهير كانوا منهم وانهم لا ينالون حقهم الا متى سادوا على العالم اجمع وصاروا الكل في الكل . اما من حيث الوسائل التي يمكن التوصل بها الى بلوغ غايتهم فقد اعلنوا جهاراً باقوالهم وافعالهم ان كل الوسائل مباحة لهم وان الحق للقوة . وقد اوردنا بعض اقوال فون برنهاردي من جهة الحرب ولزومها وكتابهُ معلوم مثل هذه الاقوال حتى يخيل لمن يقرأهُ انهُ ليس في الدنيا شريعة غير شريعة السيف وان خرق القوانين مباح للوصول الى الغرض المطلوب . وافضل شاهد على افعالهم التي من هذا القبيل ما ورد في مذكرات البرنس بسمارك (الصحيفة ٩٥ — ١٠٠ من الترجمة الانكليزية) بشأن اعلان فرنسا الحرب على بروسيا سنة ١٨٧٠[1] حيث قال

« كنت قد عزمت على الاستقالة (لان جد الامبراطور الحالي لم يوافقهُ على محاربة فرنسا) رغماً عن محاولة "رون" اقناعي بالعدول عن عزمي هذا . دعوت رون ومولتكي ذات يوم الى الغداء معي وبينما نحن على المائدة اتاني تلغراف عن مقابلة سفير فرنسا للملك في ايمس ولما كان جلالتهُ قد اذن لي في نشر خبر هذه المقابلة سألت مولتكي اولاً عن حالة الجيش فاجابني انهُ اذا كان لا بد من الحرب فالاجدر بنا عدم التأخر . فحذفت بعض الكلمات من التلغراف ولكنني لم ازد عليهِ ولم اغيّر شيئاً فيهِ وقرأتهُ ثانية على ضيفيّ فقالا ان معناهُ قد تغير تماماً فبعد ان كان خبر محادثة اعتيادية صار تحدّياً وتهرشاً (A flourish and a challenge)

---

(١) حكاية هذه الحرب ان خلا عرش اسبانيا فطلب الاسبان الى احد امراء عائلة هوهنزولرن ان يملك عليهم فلم يرُق ذلك لفرنسا لانهُ يحيطها مهددة من الشرق ومن الجنوب الغربي ولذا امر نابوليون الثالث سفيرهُ في برلين ان يطلب الى ملك بروسيا ان لا يسمح لامير المانيا ان يتبوأ عرش اسبانيا لا في الحال ولا في الاستقبال . وبما ان سفير فرنسا كلم ملك بروسيا بذلك وهو يتنزه في منتزه ايمس العمومي فامتعض الملك من مكالمة السفير اياهُ بهذا الشأن وقت التنزه واشار عليهِ ان تكون المخابرة بواسطة وزيره (بسمارك) وارسل تلغرافاً الى بسمارك بذلك . فغير بسمارك التلغراف بطريقة فهم منها ان الملك اهان السفير ونشرهُ في اوربا فلما بلغ الخبر فرنسا فاست وقعدت واعلنت الحرب على بروسيا وقال بسمارك مرادهُ لانهُ كان يبحث عن طريقة يحمل فرنسا بها على اعلان الحرب لتكون هي البادئة بالعدوان

فافهمتهم اني اذا ابلغت هذا التلغراف الى الجرائد والى السفراء يصل الى باريس قبل نصف الليل وسيكون تأثيره هناك كتأثير الرداء الاحمر في الثور » (وقت مبارزة الثيران)

اما وصف الاستعدادات الهائلة التي قام بها الالمان في الاربعين سنة الماضية للوصول الى بسط سيادتهم على العالم اجمع فما يطول شرحهُ اذ لم تبقَ بلاد من بلاد الله الأَّ وارسلوا اليها دعاتهم وساستهم وتجارهم وجنودهم ناهيك عن اسطولهم الضخم وجيشهم العرمرم الذي بلغ من الانتظام مبلغاً لم يبلغهُ جيش آخر . فتجارتهم في البرازيل وبوليفيا وغيرهما من بلدان اميركا الجنوبية ازدادت زيادة عظيمة جدًّا . قال شمولر (وهو اقتصادي سياسي) « علينا ان ننظم في جنوبي البرازيل مستعمرة يكون عدد سكانها عشرين او ثلاثين مليوناً من الالمان » وقال ايضاً سنة ١٩٠١ « ان المانيا تستولي شيئاً فشيئاً على تجارة بوليفيا (غربي البرازيل) ومتى استولت عليها كلها كان لنا هناك مستعمرة كسبناها بغير حرب وبلا خسارة »

ثم ان عدد الالمان الذين في الولايات المتحدة الاميركية مع اولادهم يبلغ على سبعة ملايين . ولما كانت المانيا عاجزة عن اخضاع هذه الجمهورية العظيمة ترى كتّاب الالمان قد غيروا لهجتهم نحوها عمَّا هي نحو بقية الشعوب فاشاروا على حكومتهم وحكومة الولايات المتحدة ان تحالفا معاً فتكون نتيجة هذا التحالف ان اساطيلها تفوق اساطيل انكلترا ويكون لها جيش يمكنها من الاستيلاء على البلدان البعيدة

ومن استعدادات المانيا ما حصلت عليهِ من الامتيازات في المملكة العثمانية واهمها سكة حديد بغداد وهي تبتدئ في الاستانة وتخترق المملكة من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي وطولها الفان وار بعمائة كيلو متر وللشركة صاحبة الامتياز كل ما تجدهُ من المعادن والمنافع في منطقة عرضها عشرون كيلو متراً على جانبي الخط (اي عشرة كيلو مترات من كل جهة) فاذا ضربنا عرض هذه المنطقة (٢٠ كيلو متراً) في طولها (٢٤٠٠ كيلو متراً) كان الحاصل ثمانية وار بعين الف كيلو متر او اثني عشر مليوناً من الافدنة (اي نحو مضاعف مساحة الاطيان الزراعية في القطر المصري) . وما سكة حديد بغداد الأَّ واسطة للوصول الى خليج العجم والزحف منهُ على الهند . ولم تنسَ المانيا ايران ولا الصين فقد سعت في مد تجارتها في الاولى واخذت كياوتشاو في الثانية قاعدة لاعمالها في تلك الاصقاع البعيدة

وقد اورد الدكتور ايل ريج بعض الارقام لايضاح تقدم تجارة المانيا . فقد كانت قيمة وارداتها سنة ١٨٩٤ نحو ٢٠٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه وبلغت ٣٩٢ مليوناً سنة ١٩٠٦ اي انها تضاعفت تقريباً في ١٢ سنة وكانت قيمة صادراتها سنة ١٨٩٤ نحو ١٦٦ مليوناً من

الجنيهات فبلغت ٣٠٦ ملايين سنة ١٩٠٦ اي انها تضاعفت تقريباً . وقد اوضح المؤلف ان ما ترمي اليه المانيا حقيقة هو الحصول على مستعمرات انكلترا اذ انها معها اخذت من الاملاك من جارتيها فرنسا وروسيا فلا تكفي لاسكان الزيادة السنوية في سكانها

وبعد ان وصف المؤلف قوة المانيا الادبية والمادية افرد فصلاً لعوامل الضعف في بروسيا . واول ما ذكرهُ من هذه العوامل هو ان بروسيا سريعة العطب . فاذا كانت منتصرة تقدمت تقدماً سريعاً واذا خانتها الايام لم تقوَ على المصائب والملمات بل تسقط حالاً . واستشهد على ذلك بتاريخ بروسيا في اواخر القرن الثامن عشر اي بعد وفاة فريدريك الكبير بعشرين سنة فان هذا الملك جعل مملكتهُ في درجة سامية من المنعة ثم ضربها نابوليون الاول سنة ١٨٠٦ ضربة شديدة فتحطمت كاناء من خزف وصارت حاميات المدن الحصينة تسلم لفرق صغيرة من الفرسان الفرنساويين

هذا والنظام الالماني المحكم الذي ذاع صيتهُ قد يفيد في الاعمال العظيمة ولكنهُ لا يربي رجالاً . ويخطئ من يظن انهُ نبغ من المانيا قواد عظام بعد فريدريك الكبير . فالجيش المنظم اشبه بمعجم رتبت فيهِ الكلمات ترتيباً منظماً غير ان ترتيب الكلمات شيء والانشاء شيء آخر وكذلك الجيش فان نظامهُ لا يكفي ما لم يكن فيهِ قائد عظيم يحيا بهِ ذلك النظام . فاشهر الشعوب هو الشعب الذي نبغ بافرادهِ لا بنظاماتهِ والرومان اصدق شاهد على ذلك

وزبدة القول انهُ اذا انتصر الجيش الالماني في حرب ما كما في سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ (وكان السبب الاكبر لانتصارهِ حينئذٍ ضعف الجيش الفرنساوي) تمَّ لهُ ما يريد اما اذا اعترضتهُ مصاعب لم تكن في الحسبان غُلب على امرهِ ولم يجد لمشاكل حلاً لان الضابط الالماني مضطر الى اطاعة الاوامر التي لؤمر بها طاعة عمياء ولم تخول لهُ الحرية في العمل وهذه الحرية لا بد منها لشحذ القريحة واعمال الحيلة لاكتشاف طرق جديدة للوصول الى الغرض المقصود . والاعتقاد الشائع ان الجيش الالماني لا يقهر اعتقاد باطل فان الالمان لم يدخلوا حرباً منذ سنة ١٨٧١ وزد على ذلك ان المغالاة في وضع نظام دقيق للجيش يجعل نبوغ قواد عظام مستحيلاً

ومن جملة عوامل الضعف في المانيا اخذ الحكومة على نفسها الاهتمام بكل امر كبيراً كان او صغيراً حتى لم يبقَ للافراد ما يعملونهُ . وقد يفيد هذا النظام في اوقات السلم ولكن اذا حدثت حرب دارت فيها الدائرة على الحكومة سقطت كل هذه النظامات لانهُ لا يوجد بين افراد الالمان من لهُ السلطة الكافية لمداومة العمل . وعليهِ فالنظام الالماني قد ساعد نمو

الامبراطورية كثيراً في ايام الصحو ولكن اذا عصفت الزوابع وهطلت الامطار فهناك الطامة الكبرى . وبضدها تتبين الاشياء فنظام انكلترا على الضد من نظام المانيا تماماً فان كثيرين من ذوي السلطة فيها خارجون عن هيئة الحكومة ولذا فانها اكثر مقاومة واحتمالاً لخطوب الزمان من المانيا . فبينما نرى النصر لازماً لالمانيا والا رزحت تحت اثقال المصائب نرى انكلترا تزيد قوة وصبراً اذا ازدادت متاعبها ومشاكلها

ثم افرد المؤلف فصلاً خصوصيًّا (وهو الفصل الاخير في الكتاب) لما يستنتج من « المقدمات والنتائج » التي ذكرها وهو انهُ يجب على الامة الانكليزية ان لا تكتفي باعداد الاسطول بل ان تنظم جيشاً بريًّا كافياً لمنازلة العدو لان طموح المانيا الى الاستعمار وتأليف امبراطورية عظيمة خارج اوربا سيضطرها يوماً الى حرب عظيمة . ولم استعد الانكليز في ذلك الوقت كما اشار عليهم مؤلف هذا الكتاب لما طالت مدة الحرب الحالية الى الآن

ب . ن

لماذا ينبغي على اميركا ان تنضم الى الحلفاء

بقلم المستر روزفلت رئيس اميركا السابق

قال الجنرال شرمن « الحرب جهنم » . وما حدث الآن في اوربا ولاسيما في بلجكا يؤيد هذا القول . ولا تبطل الحرب الا اذا عُمِل بالاسلوب الذي اقترحتهُ وهو ان ترتبط الدول المتمدنة القادرة على الحرب وعلى السلم ارتباطاً مدارهُ حفظ السلم في الدنيا . اي تتعهد بحفظ ما لكل دولة منها من الحقوق التي لا ينازَع فيها وبان كل خلاف يقع بينها يُعرَض على محكمة تحكيم لتفصل فيهِ وبانها تحارب كل دولة تعتدي على غيرها او لا تخضع لحكم هذه المحكمة في المسائل التي يجوز التحكيم فيها

ومفاد ذلك ان تحالف الدول كلها على تأييد السلم العاري عن الحَيْف الذي يحفظ لكل شعب بلادهُ وشرفهُ ومصالحهُ الحيويَّة ويضمنها لهُ ويستثنيها من الدخول في حكم محكمة التحكيم . وهذا التحالف لا يضمن اموراً يستحيل ضمانها ولا بعد وعوداً يتعذر او لا يحل القيام بها . لانهُ لا يجوز لدولة ان ترتبط بعهد الا اذا كانت واثقة انها قادرة على القيام بهِ

واخيراً وهو الاهم يجب ان يكون هذا التحالف مشمولاً بالقوة اي ينبغي ان يضمن تنفيذ ما يتعهد بهِ المتضامنون ولو استلزم ذلك استعمال القوة فتضمن الدول المتحدة حقوق كل دولة منها ودفع الاعتداء عنها وتنفيذ احكام محكمة التحكيم